الفصـــل الرابــع

المراكز العربية الاسلامية فى ساحل شرق افريقية

- مقديشـــيو ٠
- بــراوة ٠
- لامــو ٠
- مالنـــدى ٠
- ممبســـة ٠
- زنجبـــار ٠
- كـــلوة ٠
- موزمبيق ٠
- جزائر القمر (الكومور) ٠
- مدغشقر (ملاجاشى) ٠

رأينا فيما سبق أن العرب شيدوا مدنا على الساحل الشرقى لأفريقية وكانت هذه المدن مستقلة بطبيعة الحال احداها عن الأخرى ، وتشبه الى حد بعيد المدن الحرة ، التى أنشأها الاغريق والفينيقيون فى جهات مختلفة من البحر المتوسط(١) ٠على أن أهم ميزة تمتعت بها تلك المدن هو الموقع الجغرافى الذىحملها على الاتجاه الى البحر ، أى الى التجارة ، خاصة مع شبه الجزيرة العربية ٠ والعجز عن تحقيق الوحدة السياسية يرجع الى تكوين هذه المدن من بطون عربية مختلفة ، لم تتحد فى شبه الجزيرة العربية ، فضلا عن اختلاف المذاهب الدينية من زيدية الى اباضية الى سنة ، ثم التوجيه الجغرافى للمدن نفسها لم يمل عليها أن تندمج فى نظام سياسى موحد(٢) ٠وقد تزدهر مدينة من مدن الساحل ، وتصبح أكثر أهمية فى فترة وتسيطر على كثير من مدن الساحل ، مثل مدينة كلوة التى فرضت نفوذها على معظم مدن الساحل من مالندى شمالا الى كلوة جنوبا فيما عدا زنجبار حوالى عام ١٣٣٠ م ، وكذلك حاولت كل من مقديشيو وبمبا وزنجبار فى أوقات متفرقة أن تفرض قيام وحدات سياسية ترتكز على التفوق (٣) ٠

وهنا نلاحظ أن المدن أو المستوطنات العربية الاسلامية قد أقيمت على الجزر ، على الرغم من أن بعضها مثلممبسة كانيفضلها شريط ضيق منالمياه عن البر الرئيسى ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن المستقرين كانوا يخشون غزو القبائل البدائية الآتية من داخل القارة (٤) ٠ وترتب على استقرار العرب المهاجرين الى الساحل ارتباط قوى بينهم وبين الافارقة ، اذ اعتاد الافريقى أن يرى أحفاد المهاجرين العمانيين واليمنيين وغيرهم ويألف رؤيتهم ، مما أدى الى

---

(١) جلال يحيى : العرب فى شرق أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ٢٢ ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٨ ــ ٩ ٠

(٢) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص ٤٣١ ــ ٤٣٢ ٠

(٣) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، ص ٧٣ ٠

(٤) Marsh & Kingsnorth, A Hist Of East Africa, p. 18

توثيق عرى المودة والوئام بينهما (٥) • ولهذا أحس ابن بطوطة عنـــدما زار الساحل فى سنة ١٣٣١ بأنه بين اخوانه المسلمين (٦) •

وقد ازدهرت المدن العربية الاسلامية فى الساحل ازدهارا حقيقيا فى الثراء والغنى ، وزاد الاسلام رسوخا بين أهلها • وكانت تلك المدن لا تختلف عن مثيلاتها فى معظم الدول البحرية فى أوربا والهند فى العصور الوسطى ، غير أنه لم يبق من هذه المدن الا شهرتها لأنها اختفت بأكملها تقريبا ، ولقد فقد بعض هذه المدن تماما ، ولكن البعض الآخر منها لا يزال باقيـا أطـلالا أو تلالا من الحطـــام المطمور (٧) • وعندما أتى البرتغاليون الى الساحل أدهشهم تلك المدن ونالت اعجابهم ، اذ كانت منازلها العالية تحيط بها أسوار متينة تعلوها القصور ، وقد فرشت تلك القصور بالسجاد الرائع من أصفهان وجوجرات ، وغطت جدرانها بالتحف الجميلة الواردة من مملكة سونج الصينية ، والأطباق المزخرفة من العراق وفارس (٨) • والخلاصة أنه لولا الغزو البرتغالى الذى نكبت به تلك المدن فى أواخر القرن الخامس عشر ، وما تبع ذلك من تداعيها وانهيارها ، لـكان مقدرا لهـا أن تمضى شوطا بعيدا فى طريق الازدهار الحضارى ، بالاضافة الى استكمال واجبها العظيم فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى داخل أفريقية على نحو أنقى وأعظم مما هو الآن •

مقديشـــيو :

أما مدينة مقديشيو ـ عاصمة الصومال وميناؤها الرئيسى ـ الواقعة على ساحل المحيط الهندى ، فقد دخلها الاسلام مبكرا ، وكانت جسرا هاما للعرب والاسلام فى تسربهم عبر مناطق القبائل من الشرق والجنوب الى الحبشـة • ويقول ياقوت الحموى (٩) • فى معرض حديثه عنها : « مقديشيو مدينة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن ، على ساحل البحر ، وأهلها كلهم غرباء ليســوا بسودان ، ولا ملك لهم انما يدبر أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم » • ومـما

---

(٥) جيان : وثائق جغرافية وتاريخية ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ •

(٦) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 22.

(٧) باسيل دافيدسون : أفريقية : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٨١ •

(٨) Davidson, Africa in History, pp. 180 — 181

(٩) معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ١٧٣ •

يذكر أن هجرات العرب الى سواحل أريتريا والصومال كانت مستمرة منذ عصور موغلة فى القدم ، ويبدو أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا فى هذه السواحل ملجأ يلوذون به من ظروف الحياة القاسية التى قضت بها طبيعة بلادهم وأساليب الحياة فيها ، فضلا عن ذلك كانوا يجدون فى هذا الساحل فرصا كثيرة لكسب الرزق باحتراف التجارة وسائر المهن الحربية المختلفة ، على أن ساحل الصومال كان أفضل الى العرب من ساحل أريتريا ، لقرب المسافة بينه وبين بلادهم ، فهاجرت اليه جماعات عربية كثيرة ، وكانت قبائل الصومال سكان البلاد الأصليون ، يقيمون فى الأجزاء الداخلية من هذا الساحل ، على حين كان العرب المهاجرون يستوطنون المناطق المطلة عليه • ولا شك أن هجرات العرب الى مقديشيو أخذت تزداد بمضى الزمن بحكم الروابط السياسية والدينية والاقتصادية ومن أشهر الهجرات تلك التى قدمت من الأحساء (١٠) •

وأقدم الآثار اليوم فى مقديشيو منارة الجامع الكبير الاسطوانية الشكل ، وقد شيد هذا الجامع فى أول المحرم سنة ٦٣٦ هـ (١٤ أغسطس ١٢٣٨) ، ويثبت هذا الكتابة التاريخية المنقوشة بخط النسخ والمثبتة على أحد أبواب الجامع القديم الذى اندثر ، وشيد مكانه المسجد الحالى فى القرن التاسع عشر • وفى مقديشيو مسجدان قديمان : مسجد فخر الدين ، ومسجد أربع الركن ، وللمسجد الأول « قبلة » تحتوى على لوحة رخامية ، تحيط بها كتابة باسم الحاج ابن محمد بن عبد الله ، وهو على ما يبدو اسم الصانع الذى قام بصنعها ، وينسب بناء المسجد الى أول سلاطين مقديشيو أبو بكر بن فخر الدين ، وتطل واجهة المسجد الرئيسية نحو الشرق ، وله ثلاثة أبواب • وعلى مقربة من هذا المسجد يقوم مسجد أربع الركن ، وقد نقش على قبلته كتابة تدل على مؤسسه « خسرو بن محمد الشيرازى » مؤرخة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ ـ ١٢٦٩) ، وهناك مساجد أخرى أحدث عهدا (١١) •

---

(١٠) عبد المجيد عابيدين : بين الحبشة والعرب ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ •

(١١) Tamrat, Ethiopia, the Red Sea and Horn, pp. 136 — 137;

جيان : المرجع السابق ، ص ١٨٦ ، عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقية ، ص ٧٥ •

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، أسس أبـو بكر فخـر الدين سلطنة وراثية فى مقديشيو ، بمساعدة أقوى القبائل العربية الصومالية ، قبائل المقرى التى تزعم أنها قحطانية النسب • وفى عهد هذه الأسرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ازدهرت هذه الامارة وبلغت ذروة عظمتها (١٢) ، وأصابت قدرا كبيرا من الثروة • وقد زار الرحالة ابن بطوطة (١٣) سلطان مقديشيو ـ وهو من أسرة فخر الدين ـ الذى يلقبه رعاياه بالشيخ فى عام ١٣٣١ ، وقـدم وصفا حيا عن مدينة مقديشيو آنذاك ، قال : « ووصلنا مقديشيو ، وهى مدينة متناهية فى الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين فى كل يوم • ولهم أغنـام كثيرة ، وهم تجـار أقـوياء • وبها تصنـع الثيـاب المنسوبة اليها التى لا نظير لها ، ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها • ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق وهى القوارب الصغار اليه ، ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول : هـذا نزيلى ! وكذلك يفعل كل واحد منهم • ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، الا من كان كثير التردد الى البلد وعرف أهله ، فـانه ينزل من حيث شاء •فاذا انزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له • ولمـا صعد الشبان الى المركب الذى كنت فيه جاء الى بعضهم فقال له أصحابى : ليس هذا بتاجر ، وانما هو فقيه ، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى ، وكـان فيهم أحد أصحاب القاضى ، فعرفه بذلك ، فأتى الى ساحل البحر فى جملة من الطلبة ، وبعث الى أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابى ، وسلمت على القاضى وأصحابه ، وقال لى : باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ، فقلت له : اذا نزلت توجهت اليه • فقال لى : ان العادة اذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح ألا ينزل حتى يرى السلطان ، فذهبت معهم اليه كما طلبوا » •

ويبدو من رواية ابن بطوطة أن ثمة علاقات تجارية كانت منتظمة بين مصر وساحل الصومال آنذاك ، خاصة تجارة المنسوجات ، التى كانت مصر تستورد

---

(١٢) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ، ص ١٥٣ •
(١٣) الرحلة ، جـ١ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ •

أنواعا منها ، كما كانت مقديشيو تستورد المنسوجات المصرية ، ففى وصفه لملابس سكان مقديشيو ، ذكر أنها « فوطة خز يشدها الانسان فى وسطه عوض السراويل ، فانهم لايعرفونها ، ودراعة من المقطع المصرى معلمة ، وفرجية من القدسى (نسبة الى القدس) مبطنة ، وعمامة مصرية معلمة » (١٤) • وفى معرض حديثه عن سلطان مقديشيو ، وصف ملابسه قائلا : « وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسية خضراء ، وهو متقلد بفوطة حرير ، ومعتم بعمامة كبيرة»(١٥) ويمكننا أن نستنتج من ذلك كله أن تجارة الأقمشة كانت رائجة بين مصر والصومال » ولعلها استمرار لهذه التجارة منذ القدم ، على النحو الذى أشار اليه مؤلف كتاب « الملاحة فى البحر الأريترى » ، هذا وقد اختصت مقديشيو بصناعة الغزل ، فكانت تنتج نسيجا قطنيا خشنا ، وأقمشة من وبر الجمل للسوق المصرية (١٦) •

ولعل العبارة الجديرة بالانتباه فى رواية ابن بطوطة ، تلك التى أوردها عن القاضى الذى صحبه الى دار السلطان ، فقد قال : « ولما وصلت مع القاضى المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصرى الأصل الى دار السلطان ، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى ، فقال : بلغ الأمانة ، وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ ••• » (١٧) • ولا شك أن وجود صاحب منصب كبير كهذا من أصل مصرى فى بلاط سلطان مقديشيو ، لخير دليل على مدى ما كانت عليه الروابط بين مصر والصومال من متانة آنذاك •

وهنا يصح أن نكرر أن مقديشيو بفضل مناعتها وقوة تحصينها حافظت على سيادتها ابان الغزو البرتغالى لساحل شرق أفريقية فى أوائل القرن السادس عشر ، وقد ظهر ذلك واضحا فى المحاولة الفاشلة التى قام بها القائد البرتغالى داكنها لاخضاعها •

---

(١٤) الرحلة ، حـ١ ص ١٩٨ •

(١٥) الرحلة ، حـ١ ص ١٩٨ •

(١٦) رولاند أوليفر ، جون فيج : تاريخ أفريقيا ، ص ٤٠ •

(١٧) الرحلة ، حـ١ ص ١٩٨ •

وفى القرن السادس عشر ، تولت أسرة المظفر ـ نسبة الى مؤسسها ـ حكم مقديشيو ،وفى عهد هذه الأسرة نمت ثروة مقديشيو نموا محسوسا،فأصبحت بمثابة عاصمة لجميع البلاد المجاورة ، ومركزا للاقاليم العربية الصغرى ، التى كانت تسكنها على طول الساحل عشائر أهلها من مقديشيو • كما بدأت تظهر مدن بركة ومركة وجليب وكندر شيخ (ثغر بالصومال) وجزيرة وارشيخ ، وكان الأهالى يفدون على مقديشيو من تلك البلاد فى مواعيد معينة من السنة ، فيجتمعون فى مسجدها الكبير ، ويقيمون به صلاة الجمعة (١٨) •

بـــراوة :

تقع مدينة براوة على ساحل بنادر جنوبى مقديشيو ، ويبدو أنها لم تكن مدينة قديمة ، بدليل أن أحدا من جغرافيى العرب أو رحالتهم لم يذكرها أو يشير اليها ، ولكنها كانت مدينة عربية عامة حينما وصل البرتغاليون اليها ، ولم يحكمها ملك أو سلطان ، بل كانت خاضعة لطائفة من الزعماء الكبار ، ممن كانوا يشتغلون بالتجارة (١٩) والجدير بالذكر أن الأستاذ تشيرولى Cerulli عثر على نقش باللغة العربية يثبت وفاة أحد المسلمين المقيمين بالمدينة فى سنة ١١٠٤ ـ ١١٠٥ م ، الأمر الذى يؤكد أن مجتمعا مسلما مزدهرا عاش فى تلك المدينة ، خاصة اذا أخذ فى الاعتبار ما تعتقده قبيلة الحارث العمانية من أنها أنشأت ديارا لها فى مقديشيو وبراوة منذ عام ٩٢٤ م (٣١٢ هـ) (٢١) • وفى حوالى القرن الثالث عشر الميلادى صارت مقديشيو ومركة وبرأوة مراكز تجارية مسلمة هامة ، فقد استقر بها الكثير من التجار العرب والفرس ، كما كان الاسلام منتشرا على نطاق واسع بين سكان البلاد الأصليين المقيمين فى المناطق الساحلية أو الأجزاء الداخلية منها • وقد ذكرنا أن القائد البرتغالى داكنها قصف تلك المدينة بمدافعه ، وقتل

---

(١٨) جيان : المرجع السابق ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ •

(١٩) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٣ •

(٢٠) Tamrat, Ethiopia, the Red Sea and the Horn, in Cambridge Hist. of Africa, ed by Roland Oliver, Vol.3, p. 137

(٢١) عبد المنعم عامر : عمان فى أمجادها البحرية ، ص ٣٦ •

(٢٢) Tamrat, op. cit., p. 138

كثيرا من أهلها ، مما أجبر بقية الأهالى على الانسحاب الى الداخل بعيدا عن الساحل ٠

وتمثل جماعة العمرانى أهم سكان براوة ، وبعضهم يعيش فى مقديشيو ومركة وأفجوى ، وتظهر فيهم الدماء السامية الى حد كبير ، والراجح أنهم سلالة العرب الذين هاجروا منذ عدة قرون من جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولجئوا الى براوة ، ومعظمهم يشتغل فى التجارة والملاحة ، وهم يتكلمون اللهجة السواحيلية المعروفة باسم « حمرانى » (٢٣) ٠

لامـــو :

سبقت الاشارة الى أن هتشنز قد عثر على كتاب ألفه شيبو فرج بن حمد الباقرى عنوانه « أخبار لامو » ، تصدى فيه لتاريخ لامو والهجرات المبكرة الوافدة عليها ٠ فيرى أن الهجرة الأولى كانت لجماعة من أهل الشام لم ترض عن سياسة الحجاج بن يوسف الثقفى ، فهاجرت الى ساحل شرق افريقية ٠ ويبدو أن تلك الجماعة كانت كثيرة ، اذ استطاعت اخضاع السكان الأصليين واقتحام ميناء ويونى المنيع ٠ وفى أعقاب هذه الهجرة ، جاءت جماعة من أهل عمان الى الساحل ، كان من بينها سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى ، وقد رأينا أن المهاجرين السابقين على تلك الهجرة فى الساحل قد أقاموا سعيدا بن الجلندى زعيما عليهم ٠

وعندما صارت مدينة بات القوة الكبرى فى الجزء الشمالى من الساحل منذ منتصف القرن الرابع عشر تحت حكم الأسرة النبهانية من عمان ، توسعت جنوبا فى عهد السلطان عمر بن محمد الملقب فوموماري Fumo Mari (ت ١٣٩٢) ، الذى استطاع أن يضم الى نفوذه المدن المجاورة له ، لامو وماندا ومالندى (٢٤) ٠

---

(٢٣) عبد المنعم الحليم : الجمهورية الصومالية ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ٠

(٢٤) Oliver & Mathew, Hist of East Africa, Vol. I, p. 119

مالنـــــدى :

مالندى احدى الجزر الهامة التى يتألف منها أرخبيل لامو ، وهى لامـو ومالندى وبات ، وتفصل كلا منهـا عن الاراضى الساحلية قنوات ضيقة • ومن المعروف أن معظم أهالى الأرخبيل يرجعون الى أصـل فارسى ، ومازالت بقايا من مبان فارسية الطراز تشاهد الى اليوم فى الجزر الثلاث (٢٥) • وقد عرف تاريخ مالندى من الوثائق التاريخية التى لم يبق منهـا الا القليل ، كما أنه لم يحدث أى كشف أثرى بها ، لأن المدينة الحالية بنيت فوق بقـايا مبانى المدينة القديمة ، ومن المحتمل أن مالندى تأسست فى القرن الثالث عشر الميلادى (٢٦) •

وقد استمدت مالندى شهرتها فى العصور الوسطى من التجارة مع شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربى ، فى الوقت الذى كانت لها صـلات تجـارية مع الشرق الأقصى • ففى حـوالى القرن العاشر الميـلادى ، كان الجغرافيون الصينيون على معرفة تامة بمنطقة بوبالى Po Pa Li الواقعة على الساحل الغربى للمحيط الهندى ، كما سمعوا عن الأقوام السود المتوحشين فى مولين Mo Lin ، ومن المحتمل أن منطقة بوبالى مـكانها فى الساحل الصومالى ، أما مولين فهى منطقة مالندى (٢٧) وفى سجلات أسرة « سونج » الصينية سنة ١٠٨٣ م ما يشير الى زيارة ثانية للصين قام بها سفير أجنبى من بلاد تدعى بلاد « الزنج » ، وهى بلاد بعيدة للغاية ، حتى أن الامبراطور تسونج منحه هـدايا مماثلة لتلك التى أهداها اليـه فى رحلته الأولى ، بل أضاف اليها مائتى أوقية من الفضة ، واذا لم تذهب الاكتشافات الأثرية المتوقعة فى المستقبل أبعد من هذا ، فاننـا بالتأكيد نعرف أن هذا المبعوث الأفريقى هو الوحيـد الذى جاء ذكره فى الوثائق الصينية حتى سنة ١٤١٤ ، وهو التـاريخ الذى أرسلت فيه مالندى سفارة للامبراطور الصينى ومعها زرافة كهدية (٢٨)•

---

(٢٥) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٣ •

(٢٦) Morgan, East Africa, p. 119

(٢٧) Oliver & Mathew, Vol. I, p. 124

(٢٨) باسيل دافيدسون : المرجع السابق ، ص ٧٦ ــ ٧٧ •

وفى القرن الخامس عشر بلغت مالندى شأوا بعيدا فى الازدهار بسبب ضعف سلطنة كلوة ، وما يتبع ذلك من انحسار نفوذها فى الجزء الشمالى من الساحل ، الذى كان المنفذ الوحيد لتجارتها • ذلك أن مدينتى ممبسة ومالندى الواقعتين الى الشمال من كلوة استطاعتا أن تسيطرا على حركة الملاحة فى الساحل المتجهة الى البحر الأحمر من ناحية ، والمتجهة الى الخليج العربى والمحيط الهندى من ناحية أخرى ، وقد ساعد المدينتين ــ ممبسة ومالندى ــ على ذلك أن كلا منهما كانت محطة لوصول السفن وخروجها الى عرض البحر عند قيام الرياح الموسمية(٢٩)• وعندما اتجهت كلوة جنوبا ابان هذا القرن ، وراحت تفرض نفوذها على الحركة الملاحية من مافيا حتى سفالة ، شاركت ممبسة ومالندى والمدن الكبيرة الأخرى كلوة فى ذلك ، بحيث استطاعوا جميعا السيطرة على الأسواق الوسيطة فى التجارة (٣٠) • ولما كانت كلوة هى المستفيدة من ذهب سفالة ، الذى كان بمثابة شريانها الحيوى ، فقد شاركها ممبسة ومالندى هذه الفائدة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، اذ أصبح لأهلى هاتين المدينتين امتيازات خاصة فى سفالة (٣١) • وعلى أى حال ، ففى بداية القرن السادس عشر يصف المؤرخ البرتغالى باربوسا تجارة مالندى التى قامت على المقايضة بأنها كانت فى أوج ازدهارها ، فكانت السفن المالندية تبحر من كمباى محملة بالأرز والدخن والقمح ، فى الوقت الذى كان تجار كمباى وجوجرات يأتون الى مالندى لشراء الذهب والعنبر والعاج والمواد الراتنجية والشمع ، وبيع ما جلبوه معهم من التوابل والزئبق والأقمشة وغير ذلك من حاصلات الهند (٣٢) •

وعندما جاء فاسكودى جاما الى ساحل شرق أفريقية على رأس حملته الأولى استقبلته مالندى استقبالا وديا وأبدت تعاونها معه ، وقد دفعها الى ذلك احتدام المنافسة بينها وبين موزمبيق وقيام الحروب بينهما ، وبالتالى وجدت فى البرتغاليين الوسيلة الكافية لردع موزمبيق • على أن هذا السلوك الشائن الذى سلكته مالندى لم يقتصر على ذلك ، اذ لم تلبث أن توطدت

---

(٢٩) Oliver & Mathew, op. cit. Vol. I, p. 124

(٣٠) Oliver & Mathew, Vol. I, p. 133

(٣١) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 135

(٣٢) جيان : المرجع السابق ، ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ •

العلاقات بينها وبين البرتغاليين على حساب مدن الساحل ، واستمرت قائمة حتى سقوط النفوذ البرتغالى فى الساحل (٣٣) • وقد أثارت مالندى دهشة البرتغاليين عندما شاهدوها لأول مرة ، اذ لم يدر بخلدهم أن يجدوا مدنا عامرة مزدهرة فى الساحل ، فبهرتهم طرقاتها المستقيمة ، وروعة بيوتها الحجرية ذات الطوابق المتعددة • وكان أهم ما استرعى انتباه البرتغاليين غلبة الطابع العربى على مالندى أكثر من أى مكان آخر زاروه ، وقد أشادوا بالأخلاق الطيبة التى تميز بها أهلها من العرب ، وما هم عليه من رخاء يفوق رخاء أهالى موزمبيق ، اذ كانوا يرتدون الثياب الحريرية والقطنية الرائعة ، ويحملون السيوف والخناجر المكفتة ، على نحو يتميز بدقة الصنع وجمال الذوق•أما نساء مالندى فقد تميزن بثيابهن الفاخرة ، وجمالهن واعتدال قوامهن ، حتى ذاعت شهرتهن وكن مضرب الأمثال فى الجمال ، فقيل فى ذلك : « نساء مالندى وفرسان ممبسة » (٣٤) • كذلك اشتهر أهل مالندى بولعهم بالأعياد والحفلات الموسيقية طلبا للتسلية والترويح (٣٥) •

بات (باتـا) :

أما جزيرة بات ، وهى احدى جزر أرخبيل لامو ، فقد عثر فيها على بقايا مبان عليها نقوش عربية ترجع الى ما بين عامى ٩٣٠ هـ (١٤٢٣) و ١٠٢٤ هـ (١٦١٥) ، ويحتمل أن تكون الجزيرة قد اشتقت اسمها من قبيلة البـاتوية العربية (٣٦) • ومن المعروف أن أولى الهجرات العربية الجماعية الى تلك المدنية كانت فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) وذلك على أثر سياسة التنكيل بالمعارضين للدولة الأموية • وتذكر الروايات المحلية فى بات أنه عندما علم عبد الملك بأخبار تلك الهجرة ، أرسل حملة الى

---

(٣٣) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, p. 59

(٣٤) جيان : المرجع السابق ، ص ٣٢٠ •

(٣٥) Davies, Exploring the World, p. 87 — 88
Elist, The East Africa Protectorate, p. 52

(٣٦) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١١٩ •

ساحل شرق أفريقية لنشر الدعوة الاسلامية ، حيث استقرت فى أرخبيل لامو والمناطق التى حوله (٣٧) • وكما سبق أن رأينا أن الأخوين سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى قد ثارا فى وجه الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولكن قوات الحجاج بن يوسف الثقفى قد تغلبت على الأخوين وأنصارهما ، فهربوا الى الساحل • ولا يعرف على وجه التحديد أين نزلوا على الساحل ، ومن المحتمل أن يكونوا نزلوا فى بات (باتـا) Pate فى أرخبيـل لامو ، أو فى مدينـة حدابو التى أسسوها شمالا فى ممبسة (٣٨) • وتذكر بعض الروايات المحلية أن الخليفة العباسى المنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥) قد أرسـل حملة الى السـاحل لتأديب المدن التى خرجت على طاعته ، فنزلت فى بات (٣٩) •

وطبقا لحوليات مدينة بات بدأت تلك المدينة تأخذ أهميتها منذ وقت مبكر من القرن الثالث عشر ، ويقال أنها فى منتصف القرن الرابع عشر قامت بغزو مدن الساحل ، بما فى ذلك كلوة • والواقع أن المراجع والكشوف الجغرافية لم تؤيد هذه الرواية ، ذلك أن بات لم يكن لها شأن يذكر قبل القرن الرابـع عشر ،وانكانت احتلت مـكانة هامة قبـل الربع الأخـير من القـرن الخامس عشر (٤٠) •

وقد سبقت الاشارة الى أن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى وفد على ساحل شرق افريقية فى هجرة عربية كبيرة من عمان فى مستهل القرن الثالث عشر الميلادى ، واستطاع هذا الأمير أن يؤسس أسرة حاكمة فى بات ، أطلق على مـن يتولـى الحكم فيها لقب فومر مادى أوفوموماري ، وهو لقب أفريقى يدل على الزعامة • ومنذ منتصف القرن الرابع عشر امتد سلطان الأسرة النبهانية على معظم المدن الساحلية •

---

(٣٧) Chittick, The East Coast, Madagascar and in the Indian Ocean, in Cambridge Hist. of Africa, Vol. 3, p. 198; Knappert, Swahili Islamic Poetry, Vol. I, pp. 5 — 6

(٣٨) محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصـور الوسط ، ص ٤٧ •

(٣٩) Chittick, op. cit., p. 198

(٤٠) Chittick, op. cit., p. 208; Knappert, op. cit., p.6

والجدير بالذكر أن ظهور الأسرة الذبهانية فى بات وتوسعها فى الساحل ، قد ارتبط بأفول ازدهار كلوة فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر • ويرجع السبب فى ذلك الى التغيير الذى طرأ على سلطنة المماليك فى مصر فى عهد السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ – ١٣٩٩) ، اذ ازداد حجم تجارة المحيط الهندى التى تمر عبر أراضى مصر الى البندقية • وقد كشفت الحفريات الأثرية أن المدن الكينية الواقعة شمال نهر تانا – على الأرجح قد اتجهت ناحية مصر منذ أواخر القرن الرابع عشر ، بدليل العملات الفضية المنسوبة الى الظاهر برقوق التى عثر عليها فى ميناء عدل وأراضى الصومال وبات • ولعل ذلك يفسر أن الازدهار الفجائى الذى حققته بات يرجع ، وان كان بصورة غير مباشرة ، الى السياسة التجارية الجديدة التى سارت عليها مصر المملوكية ، وهى سياسة لم تستمر طويلا • وينبغى القول أن المدن الساحلية الواقعة جنوب نهر تانا ، كنتيجة للظروف الجغرافية والتاريخية ، ظلت خلال القرن الخامس عشر الميلادى متجهة نحو الخليج العربى والهند (٤١) •

ومهما يكن من أمر ، فان النفوذ الذى مارسته بات على كثير من مدن الساحل لم يستمر طويلا ، ذلك أنه عندما وصل البرتغاليون الى الساحل كانت بات مدينة ثانوية قليلة الشأن • ولذلك عندما هاجمها دالميدا فى سنة ١٥٠٦ ، وأطلق عليها قذائف مدافعه ، عجزت عن الصمود والمقاومة ، ووقعت فريسة فى أيدى البرتغاليين (٤٢) •

ممبسة :

وصف الجغرافيون المسلمون ممبسة بأنها مقر ملك الزنج ، والمعتقد أن هؤلاء الزنج هم قبائل النيكيا التى كان يعيش منها فى ممبسة قبائل الشانجا موى ، والواكيليندينى ، والواتانجاثا • (٤٣) وتروى الروايات المحلية لمدينة

---

(٤١) Oliver & Mathew, Hist. of East Africa, Vol. I, pp. 119 — 120

(٤٢) Ibid., Vol. I, p. 151

(٤٣) Trimingham, Islam in East Africa, pp .13 — 14; والترجمة العربية ، ص ٤٦ – ٤٧ •

كلوة أن أول حاكم لكلوة كان على المعروف باسم Nguo — Mingi ، وكان أبوه الحسن بن على سلطان شيراز قد هاجر الى ساحل شرق أفريقية ومعه جماعته على سبع سفن ، ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء ، وقد حكم على كلوة فى منتصف القرن العاشر الميلادى ، واستمر حكمه أربعين سنة ، وعهد الى ابنه محمد بحكم ممبسة (٤٤) ٠

ويعتبر ما كتبه الرحالة ابن بطوطة (٤٥) عن مدينة ممبسة فى القرن الرابع عشر الميلادى أهم مصدر يصف أحوالها قبل وصول البرتغاليين الى الساحل ، فقد زارها فى عام ١٣٣٢ ، وقال عنها : « فوصلنا الى جزيرة منبسى (ممبسة) ، وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا بر لها ، وأشجارها الزيتون ، ولها نوى كنواه ، الا أنها شديدة الحلاوة ٠ ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة ، وانما يجلب اليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك ٠ وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح ٠ ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان ، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عمود رقيق فى طول الذراع والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ، وعلى بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ٠ ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ ٠ وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام ٠ وبتنا بهذه الجزيرة ليلة ، وركبنا البحر الى مدينة كلوة ٠٠٠ » ٠

ويفهم من هذا الوصف أن مدنية ممبسة فى القرن الرابع عشر كانت صغيرة، مساجدها من الخشب ، وسكانها حفاة ، لايعرفون الزراعة ، فى حين أن المؤرخ البرتغالى باربوسا وصفها فى بداية القرن السادس عشر وصفا مغايرا مختلفا تماما ،فقد كتب عنها قائلا : « ثمة مدينة اسلامية كبيرة تدعى ممبسة ، وهى جميلة ، ذات بيوت رائعة مبنية بالحجر ومطلية بالكلس ، وشوارعها منسقة على

---

(٤٤) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, p. 43

(٤٥) الرحلة ، جـ١ ص ٢٠٠ ٠

غرار شوارع كلوة ، ويحكمها ملك • وأهالى المدينة ذوى بشرة بيضاء داكنة وبنية ، وتتزين النساء بالحرير والذهب • وممبسة مركز كبير للتجارة ، ولهـا ميناء جيد يعج بالسفن الرائحة والغادية ، تلك التى على أهبة الابحار الى سفالة وزنجبار ومافيا وبمبا ، وتلك الآتية من كمباى ومالندى • وتتميز ممبسة بوفرة المؤن ، والخراف الطيبة ذات الذيل المستدير ، والأبقار ، والدواجن ، والماعز ، والكثير من الأرز والدخن والبرتقال الحلو والحامض والليمون والرمان والتين الهندى ، وكل أنواع الخضروات ، ومياهها عذبة للغاية • وتتراوح علاقة أهالى المدينة بالأفارقة داخل القارة بين عداوة ومودة ، ففى بعض الأحيان يشتبكون فى حروب معهم ، وأحيانا أخرى كانوا يقيمون علاقات طيبة معهم ، ومن ثم يمارسون التجارة معهم ، حيث يحصلون على كميات وفيرة من العسل والشمع والعاج » (٤٦) • ولا شك أن ممبسة عاشت حياتها آنذاك فى رخاء وازدهـار وثراء ، ويؤكد هذا أن البرتغاليين عندما قاموا بنهبها فى عام ١٥٠٥ أصابـوا قدرا عظيما من الأسلاب والغنائم ، حتى أن نقلها الى سفنهم استغرق خمسة عشر يـوما • وهكذا تعكس ممبسـة ، من الناحيـة الاقتصـادية ، صـورة قاتمة من التدهور فى القرن الرابع عشر ، فى حين تعكس ممبسة فى بداية القـرن السادس عشر صورة حقيقية من الرخاء والازدهار • ومن المحتمل أن هذا التغيير يرجع الى أن كميات ضخمة من تجارة الساحل أخذت تشق طريقها عبر ميناثها ، ومن المحتمل أيضا أن ممبسة صارت أحد المراكز الرئيسية لتجـارة جوجرات وكمباى (٤٧) • وكيفما كان الأمر ، فقد نهض ثراء ممبسة على التجارة ، وقـد ساعد على ذلك أنها كانت تمتلك أروع ميناء فى الساحل ، فكانت سفنها تستورد السلع المصنوعة من الحديد ، ويقوم تجار ممبسة ببيعها للافارقة فى الداخل نظير العاج ، وقد أفاد البرتغاليون من تلك التجارة ، اذ ارتفعت عائداتهم من الرسوم الجمركية التى فرضوها على السفن الآتية من الهند (٤٨) •

ومن المعروف أن ممبسة سلكت مسلكا عدائيا مع البرتغاليين منذ ظهورهم

---

(٤٦) Marsh & Kingsnorth, The Hist. of East Africa, pp. 25 — 26; Pearce, op. cit., p. 65

(٤٧) Chicittick, op. cit., p. 209; Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 26

(٤٨) Oliver & Mathew, Vol. I, pp. 151 — 152

فى مياه ساحل شرق أفريقية ، وقد رأينا كيف سلط عليها داليدا مدافعه فى سنة ١٥٠٥ ، ثم أضرم النار فى أنحائها • وعلى الرغم من الخراب الذى أصاب ممبسة على أيدى البرتغاليين ، الا أنها لم تستسلم ، وظلت تناصبهم العداء والكراهية ، ويتجسد ذلك فى سلسلة الثورات التى قامت بها ضدهم • ولعل الجدير بالذكر أن أهالى جزيرة كريمبا وقفوا الى جانب ممبسة فى صراعها ضد البرتغاليين • ففى عام ١٥٢٢ وصلت سفينتان حربيتان من البرتغال الى موزمبيق ، وكان حاكم موزمبيق وقتئذ جواو داماتا Joao da Mata ، فأرسل السفينتين فى مهمة على الساحل • وفى تلك الأثناء كان سلطان زنجبار موالیا للبرتغاليين ، ويقوم بجمع الجزية المقررة عليه وعلى المدن التابعة له ، ومن بينها كريمبا ، التى تحالفت مع ممبسة ضد البرتغاليين ، وبالتالى رفضت دفع الجزية المقررة عليها لسلطان زنجبار (٤٩) • وكان هذا السلطان قد شكى مرارا لداماتا بأن ما فعلته كريمبا يجعله عاجزا عن تقديم الجزية المطلوبة ، وعقد وصول السفينتين الى زنجبار أعاد سلطانها شكواه ، فلم يجد داماتا بدا من تأديب كريمبا واخضاعها ، وكان أن قاد حملة اليها ، ولم يلبث أن شن هجوما قاسيا عليها انتهى بتدميرهـــا واحراقها ، رغم ما أبداه أهلها من مقاومة صلبة ، شاركهم فيها أهالى ممبسة(٥٠)

على أن الكارثة التى نزلت بأهالى كريمبا ، لم تفت فى عضد أهالى ممبسة ، بل زادتهم اصرارا على مقاومة البرتغاليين ، وقد ساعدهم على ذلك حصانـــة مدينتهم وموقعها المنيع ، وعلى أى حال ، ففى سنة ١٥٢٨ كان القائد نونو داكنها فى طريقه الى الهند ليباشر مهام منصبه كحاكم عام للهند ، فعرج على زنجبار ومالندى انتظارا للرياح الموسمية ، فشكى اليه الأهالى من اعتداء جارتهم ممبسة على أراضيهم ، وعندئذ قرر التوجه الى ممبسة لتأديبها ، ولما علم أهالى ممبسة بذلك ، بادروا باخراج نسائهم وأموالهم الى داخل القارة بعيدا عن متنـــاول مدافع الأسطول البرتغالى ، وكان أن قام البرتغاليون بهجوم مرير على المدينة

---

(٤٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ •

(٥٠) Pearce, op. cit., pp. 66 — 67

Ingrams, Zanzibar, p. 101

عجز الأهالى عن صده ، فانسحبوا الى الداخل (٥١) • ولما أحس صاحب ممبسة بعجزه عن المقاومة ، خرج من مخبأه ، وعرض على نونو داكنها أن يعقد معه اتفاقية يصير بمقتضاها تابعا للبرتغال ، ويتعهد بدفع جزية سنوية ، فوافق نونو داكنها • ومنذ ذلك الوقت لم تحاول « جزيرة الحرب » وهو اللقب الذى أطلق على ممبسة ، أن تثور على البرتغاليين الا فيما بعد فى أواخر القرن السادس عشر (٥٢) •

زنجبـــار :

لفظ زنجبار كلمة مركبة من « زنج » بالعربية ، و « بار » وهى تعنى ساحل بالفارسية ، أى ساحل الزنج ، وقد أطلقها العرب على كل ما عرفوه من ساحل شرق أفريقية • وتتكون زنجبار الحالية من ثلاث جزر رئيسية ، هى زنجبار وبمبا ومافيا ، وعدد آخر من الجزر الصغيرة ، وجميعها متشابهة فى مظاهرها الطبيعية والبشرية • وقد عرفت زنجبار فى اللغة السواحيلية باسم أنجويه ، وكتب على ضروب شتى : لنجويه ، ليخونه ، أنجويه ، لنحويه ، بنجويه ، وقد كتبها ياقوت الحموى (٥٣) لنحويه ، وقال عنها : « هى جزيرة عظيمة بأرض الزنج ، منها سرير ملك الزنج ، واليها تقصد المراكب من جميع النواحى » •

والمعروف أن الاسلام فى أيامه الأولى دخل زنجبار على أيدى التجار المسلمين، حيث استقر بعضهم فيها ، واختلطوا بأهلها ، الأمر الذى جعلهم دعاة للدين الاسلامى والثقافة العربية • ورغم أن المعلومات عن زنجبار مازالت تنقصنا خلال القرون الأولى من ظهور الاسلام ، الا أن الآثار القليلة التى عثر عليها تشير بوضوح الى الرخاء الذى نعمت به هذه المدينة • فقد بنى المسلمون بها أبنيـــة من الحجر عليها سمات البذخ ، وكانوا يحضرون اليها الحجارة الفاخرة من الصين وسك حكامها نقودهم من النحاس (٥٤) •

---

(٥١) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤ •

(٥٢) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 30; Pearce, op. cit., p. 67

(٥٣) معجم البلدان ، حـ ٥ ص ٢٣ •

(٥٤) رولاند أوليفر ، جون فيج : تاريخ أفريقيا ، ص ٤٠ •

وتمدنا أحداث كلوة بأول معلومات تاريخية عن زنجبار ، ذلك أنه بعد أن تأسست سلطنة كلوة فى سنة ٩٧٥ ، حدث أن أغارت قبائل البانتو المتوحشة على أراضيها ، فهرب سلطانها على بن الحسن الى زنجبار ، بيد أنه لم يمكث طويلا فى زنجبار ، اذ استطاع أهالى كلوة صد القبائل المغيرة ، وأرسلوا يستدعون سلطانهم من زنجبار ، حيث حكم أربعة عشر عاما ، ومن المحتمل أن هذه الواقعة حدثت فى القرن الحادى عشر (٥٥) ٠

والى جانب هذا تمدنا الآثار بمعلومات جديدة عن زنجبار فى أوائل القرن الثانى عشر ٠ اذ ثمة مسجد فى كيز يمكازى Kizimkazi الواقعة فى جنوب زنجبار ، وهو مسجد قديم من أعجب المبانى فى شرق أفريقية ، ويقع فوق محرابه نقش بالخط الكوفى نصه : « بأمر الشيخ السيد بن عمران مفوم الحسن بن محمد أطال الله حياته المديدة ، اللهم اقض على أعدائه ، تم بناء هذا المسجد فى يوم الاحد من شهر ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة (الموافق ١١٠٧) (٥٦) ٠ ومن سوء الحظ أننا لا نعرف عن هذا الأثر شيئا أكثر من ذلك ، ومن الأرجح أنه كان أحد حكام زنجبار الشيرازيين ، أو لعله ينحدر من سلالة على بن الحسن ـ أو الحسن بن على ـ الذى قام بتأسيس سلطنة كلوة ، وعلى أى حال ، فانه ليس بوسعنا أن نعتبر هذا المسجد الذى لازال أعظم حلية زخرفية فى زنجبار ، الأول من نوعه مما أقامه المستقرين الأوائل ، وان كان يشير بوضوح الى أن زنجبار فى تلك الأثناء كانت ناهضة ومستقرة تماما ، ويبدو أيضا أن كيز يمكازى الواقعة فى الجنوب الأقصى من زنجبار كانت العاصمة المبكرة لزنجبار (٥٧) ٠

فاذا ما انتقلنا الى القرن الثالث عشر ، يتضح لنا من الروايات المحلية لمدينة كلوة أن زنجبار لعبت دورا فى أحداث تلك المدينة ٠ ذلك أن أحد المطالبين بعرش سلطنة كلوة واسمه سعيد بن حسن ، قد لجأ الى حسن بن أبى بكر سلطان

---

(٥٥) Ingrams, op. cit., pp. 132 — 133; Pearce, op. cit., pp. 43 — 44

(٥٦) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 107, Morgan, op. cit., p. 203;

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٨٢ ٠

(٥٧) Chittick, op. cit., p. 195; Ingrams, op. cit., pp. 133 — 134

زنجبار طالبا لمساعدته ، فاستجاب له ، وأرسل جيشا برفقته بقيادة أحد أمرائه يدعى زبير ، ولكن الأمير لم يلبث أن تخلى عن سعيد بسبب خلاف قام بينهما ، الأمر الذى يفهم منه أن سعيدا أخفق فى الوصول الى عرش كلوة من جهة ، وأن زنجبار آنذاك كانت دولة مستقلة ذات أهمية من جهة أخرى · بيد أن هـذه الأهمية لم تستمر طويلا ، اذ نجد فى تاريخ مدينة بات فى عهد السلطان عمـر (١٣٣١ ــ ١٣٤٨) أن زنجبار كانت عديمة الشـأن ، حتى أنـه لم يكن لهـا حاكما (٥٨) · ويبدو أن زنجبار قد استعادت نفوذها فى القرن التالى ، اذ تروى حوليات كلوة أن سلطنة كلوة شهدت حالة من الفوضى وعدم الاستقرار لا نعلم عنها الا القليل ، اذ تعرض فضيل سلطان كلوة لتهديد من قبل حسن ابن سلطان كلوة السابق مطالبا بأحقيته فى الحكم ، وفى الصراع الذى نشب بين السلطان ومنافسه ، أرسل سلطان زنجبار فى سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٥) مبعوثا من قبلـه لعقد الصلح بين المتنافسين ، على أساس أن يستعيد حسن نفوذه ولقبه السابقين ، بيد أن المبعوث فشل فى مسعاه ، ويروى أنه فى أثناء عودته الى زنجبار ، تقدم حسن على رأس قواته ، وقام بشن هجوم على كـلوة ، ولكنـه لقى هزيمـة ساحقـة (٥٩) ·

ويبدو أن زنجبار كانت مزدهرة عندما وصل فاسكودى جامـا الى ميـاه ساحل شرق أفريقية فى سنة ١٤٩٩ ، اذ كان بهـا الخشب السميك والماشـية الكثيرة ، وكان أهلها المسلمون يتجرون بدرقات السلاحف والعنبر والعاج وشمع العسل والأرز ، كما كانت تصنع بها الحبال من قشور أشـجار جـوز الهنـد ، والأقمشة الحريرية والقطنية (٦٠) · وقد وصفها الملاح ابن ماجـد قـائلا : « زنجبار ممتدة على بر الزنج ، ذات أشجار وفاكهة ، وفيهـا أربعـون خطبـة (ويقصد بذلك أربعين مسجدا) تحكم عليها سلاطين الاسلام » (٦١) · ومما يذكر أن فاسكودى جاما لم يتوقف فى زنجبار خلال رحلته الى الهند والعودة منها مارا بساحل شرق أفريقية ، اذ تأتى أول اشارة عنها فيما كتبه مؤرخ السفينة

---

(٥٨) Pearce, op. cit., pp. 44 — 45

(٥٩) Pearce, op. cit., p. 45, Ingrams, op. cit., p. 134

(٦٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ ·

(٦١) كتاب الفوايد فى أصول البحر والقواعد ، حـ ١ ص ٦٩ ·

سانت جبرييل بقوله : « وفى يوم الاحد ٢٧ يناير سنة ١٤٩٩ تركنا هذا المكان (شول فى غربى الهند) ، وفى صباح اليوم التالى اقتربنا من جزيرة كبيرة تدعى جامجبار Jamgibar على بعد عشرة فراسخ من الساحل ، وهى مكتظة بالمسلمين ، وفى أول فبراير رسونا أمام جزيرة سانت جورج بالقرب من موزمبيق » (٦٢) ٠

وكان من الطبيعى أن تفرض البرتغال سيطرتها على زنجبار شأنها فى ذلك شأن بقية مدن الساحل الأخرى ٠ وقد حدث ذلك فى سنة ١٥٠٣ عندما أبحر لورنزو رافاسكو فى سفينته من لشبونة تحت قيادة انطونيو داسلداتها ، واذا انحرفت سفينة رافاسكو عن الطريق المألوف الذى سلكه داسلدانها، أبحررافاسكو الى جزيرة زنجبار ، حيث لجأ الى الاشتغال بالقرصنة ، وذلك بتدمير سفن الداو الاسلامية عند مدخل الميناء ٠ ولما خرج اليه سلطان زنجبار واحتج على أعماله ، رد عليه رافاسكو بأن أطلق قذائف مدافعه على المدينة ، مما أدى الى قتل الكثير من الأهالى ، وكان من بينهم ابن سلطان زنجبار (٦٣) ٠ وفى القتال الذى نشب بين الفريقين ، لم يستطع أهالى زنجبار الاستمرار فى المقاومة ، فاستسلموا لرافاسكو وقبلوا أن يدفعوا الملك البرتغال جزية سنوية مقدارها مائة مثقال من الذهب وثلاثين رأسا من الغنم ٠ وقد تصادف أن كانت أربع سفن اسلامية راسية فى الميناء فى ذلك الحين ، فأعطى رافاسكو اثنين منهما لابن سلطان مالندى حليف البرتغاليين الذى كان موجودا فى الميناء ــ فيما يبدو ــ وقت الهجوم ، أما الثالثة فقد أفرج عنها رافاسكو بعد أن دفعت فدية ضخمة ، على حين أخذ الرابعة بحمولتها غنيمة للملك البرتغال ٠ ويعلق المؤرخ بيرس على تعبث رافاسكو وتجرمه فى مياه زنجبار بأن ذلك يعتبر من أعمال القرصنة فى العصر الحديث ، ولكنه فى تلك العصور ــ أواخر العصور الوسطى ــ كان على العكس من ذلك ، اذ كان القضاء على المسلمين وتدمير ممتلكاتهم عملا جديرا بالتقدير ، وواجب كل مسيحى مخلص ! (٦٤) ٠ ونخرج من ذلك الى أن زنجبار فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، من الناحية الاقتصادية ، كانت

---

(٦٢) Pearce, op. cit., 57 — 60

(٦٣) Pearce, op. cit., p. 61

(٦٤) Pearce, op. cit. pp. 61 — 62

قليلة الأهمية ، بدليل أن البرتغاليين فرضوا عليها مائة مثقال جزية ، فى حين طالبوا كلوة بدفع ألفى مثقال ، وفرضوا على ممبسة ألفا وخمسمائة (٦٥) ٠

وفى عام ١٥٠٩ زار القائد البرتغالى دوارتى دى ليموس مدن الساحل فى سفينة لجمع الجزية المطلوبة ، ولما كانت حوادث القرصنة والبطش التى ارتكبها رافاسكو فى زنجبار مازالت ماثلة فى أذهان أهالى زنجبار ، فقد رأوا فى ليموس صورة متكررة من رافاسكو ، وبدافع الكراهية الشديدة للبرتغاليين ، أجمع الأهالى على مقاومة ليموس ، وازاء هذا انتقم منهم ليموس بضرب المدينة واحراقها ، مما اضطر الأهالى الى الانسحاب داخل الجزيرة ، ثم قام ليموس ورجاله بنهب المدينة (٦٦) ٠ وعلى أثر ذلك وقعت زنجبار فى مهاوى الركود والانحسار ، حتى أنها عجزت عن دفع الجزية المفروضة عليها للبرتغاليين ٠

كـــلوة :

بدأت كلوة فى الظهور فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، عندما وفدت عليها هجرة من فرس شيراز بزعامة الحسن بن على الشيرازى، وكانت كلوة آنذاك جزيرة صغيرة يعيش فيها شيخ مسلم اسمه « موريرى وبارى » ، ولما قابله الحسن عرض عليه رغبته فى شراء كلوة مقابل أقمشة كانت معه، فاتصل موريرى بزعيم أمولى Amuli وهو صاحب الجزيرة ، فوافق على بيعها شريطة أن يحيط الحسن الجزيرة كلها بالقماش ، فقبل الحسن وقدم له القماش المطلوب، وعاش الحسن ورجاله وذويه فوق الجزيرة التى أطلق عليها «كلوة كيزيوانى» – ومعناها الحقيقى «على الجزيرة» – تمييزا لها عن كلوة كيفنجى الواقعة على الساحل شمالى الاولى (٦٧) ٠ وهكذا بدأت كلوة حياتها الاولى وتطورت حتى صارت من أعظم مدن ساحل شرق أفريقية ٠ وينبغى القول أنه مهما قيل عن تلك الهجرة من أنها واحدة

---

(٦٥) Trimingham, op. cit., p. 18

(٦٦) Pearce, op. cit., p. 63

(٦٧) Pearce, op. cit., pp. 42 — 43;
ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، مقدمة ، المعرب ، ص ١٠ – ١٢ ٠
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٧٩ – ٨١ ٠

من قصص الادب الشعبى الشيرازى، أو أن طابع الخرافة يحيط بأحداثها، الذى لاشك فيه أنها تستند الى أساس من الحقيقة ، وقد أكدت الاحداث التاريخية التالية حدوثها ، خاصة اذا أخذنا فى الاعتبار أن المهاجرين الاوائل – عربا وغير عرب – الى الساحل كانوا يفضلون المعيشة فى الجزر أكثر من أى مكان آخر ، لسهولة الدفاع عنها، ولبعد موقعها عن اعتداء الافارقة الاصليين فى البر الافريقى، اذ كان عليهم اذا أرادوا شن هجوم على المهاجرين أن يخوضوا الماء الفاصل بين الساحل والجزيرة ٠

واذا أخذنا بما ذكرته الروايات المحلية من أن كلوة كان بها مسجدا عندما وفد عليها الشيرازيون، فلا شك أن هذه المعلومة هامة، اذ توضح لنا أن مسلمين آخرين قد شقوا طريقهم الى كلوة واستقروا بها قبل النصف الثانى من القرن العاشر (٦٨) ٠

وخشية أن تتعرض جزيرة كلوة لهجوم من قبل الافارقة ، قام الوافدون الجدد بتعميق المجاز الذى يفصل بينهم وبين البر الافريقى ليجعلوا منه مانعا يصعب عبوره ٠ ولما مات الحسن بن على خلفه فى الزعامة والسلطنة ابنه على ، الذى أخذ يعمل على توسيع دائرة نفوذه فى الساحل ، فهاجم جزيرة مافيا المجاورة وضمها لسلطانه دون أن يشتريها ، كما فعل أبوه فى كلوة ٠ وفى عهده اعتدى الافارقة الوثنيون على الجزيرة فى حوالى سنة ١٠٢٠م ، وتغلبوا عليه ، فاضطر للهرب الى زنجبار ، بيد أنه بعد فترة قصيرة استطاع أن يجمع شتات جنده ، وعاد بهم الى كلوة ، واسترد ملكه (٦٩)٠

ازدهرت كلوة فى القرن التالى ، واكتسبت ثروتها من تجارة الذهب ، وكانت مقديشيو تحصل على هذا المعدن من سفالة ، وقد رأى داود بن سليمان سلطان كلوة (١١٣٠ – ١١٧٠) أنه أحق بهذا الذهب من مقديشيو، فبعث سفنه الى سفالة ، وبذلك قضى على تجارة الذهب فى مقديشيو ، وصارت

---

(٦٨) Pearce, op. cit., p. 43

(٦٩) Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 22 — 23

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ٠

الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة (٧٠) • وتفخر سلطنة كلوة التى عرفت باسم دولة الزنج بأزهى أيامها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وقد استخدم أهلها ثروتهم فى ترقيتها والنهوض بها ، فبدلا من استعمال خشب البامبو والطين فى البناء ، أخذوا يبنون بيوتهم من الخشب ، فكانوا يقطعونه الى ألواح عريضة للجدران والأبواب ، كما بدأ عرب كلوة يبنون بيوتهم بالأحجار ، فكانوا يقطعونها الى أشكال منتظمة لتتناسب مع بعض ويلصقونها بالأسمنت (٧١) • وخير شاهد على الثروة الدافقة التى نعم بها سلاطين كلوة ، هو ادخال أساليب هندسية جديدة فى فن العمارة لم تكن موجودة من قبل ، مثل القباب والعقود • ويظهر ذلك بوضوح فى المستودع التجارى الضخم المعروف باسم Husuni Kubwa والقصر ، والمسجد الذى كان سقفه مكونا من مجموعة من القباب المتلاحقة مقامة على أربعين عامودا حجريا (٧٢) ويمكننا القول أن التوسع فى استخدام المبانى الحجرية بدأ متأخرا فى القرن الرابع عشر ، ذلك أن الرحالة ابن بطوطة ـ كما سنرى بعد قليل ـ عندما زار كلوة فى عام ١٣٣٢ ، وصف المدينة بأنها من الخشب •

وقد ترتب على رخاء كلوة الاقتصادى ونفوذها الواسع ، أن تبوأت مكانة الصدارة فى ساحل شرق أفريقية ، وازدادت الروابط بينها وبين العالم العربى • وقد وصف ابن بطوطة (٧٣) مظاهر العمران التى سادت كلوة قائلا : « ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب والآمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب » • وتؤدى بنا العبارة الاخيرة الى الاشارة الى الشيرازيين الاصليين الذين أتوا من الساحل الشمالى للخليج العربى الى شرق أفريقية فى النصف الأخير من

---

(٧٠) Marsh & Kinsnorth, op. cit., p. 23

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ •

(٧١) ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، مقدمة المعرب ، ص ١١ ـ ١٢ •

(٧٢) Chittic, op. cit., p. 205

(٧٣) الرحلة ، حـ ١ ص ٢٠٠ •

القرن العاشر كانوا على المذهب السنى ، ويؤكد هذا أن فارس لم تصبح شيعية تماما قبل القرن السادس عشر ، ومن المحتمل أيضا أنهم كانوا يتحدثون العربية (٧٤) • فقد شاهد ابن بطوطة عند سلطان كلوة بعض الشرفاء العرب الذين قصدوا اليه من العراق والحجاز ، وعدد منهم بعض الأسماء الكبرى ، وأشاد بترحيب السلطان لهم ، ورعايته لغيرهم من عامة العرب الذين وفدوا عليه من ديار اليمن ، وفى ذلك يقول : « وكان سلطانها (كلوة) فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن ، وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه فى مصارفه المعنية فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة • وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ، ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف (٧٥) » •

ومما يذكر أن كلوة منذ القرن الثالث عشر غدت سوقا تجاريا واسعا لمنتجات الصين والهند ، اذ كان تجار تلك الجهات يجلبون اليها الخزف الصينى والخرز وكميات ضخمة من التوابل • ونتيجة لذلك لجأ سلاطين كلوة الى سك نقود خاصة من النحاس فى كميات ضخمة لتكون أساسا للتعامل بدلا من الودع الذى كان يستخدم من قبل بمثابة عملة لتبادل البضائع (٧٦) •

على أن ازدهار سلطنة كلوة لم يتجاوز منتصف القرن الخامس عشر ، اذ بدأ نجمها فى الأفول والاضمحلال ، اذ اضطربت أحوالها نتيجة للقلاقل الداخلية والتنافس بين الحكام من جهة ، واغتصاب

---

(٧٤) Knappert, Swahili Islamic Poetry, Vol. I, p. 2

(٧٥) الرحلة ، حـ ص ٢٠٠ ،
ابراهيم العدوى : العروبة فى شرق أفريقية ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ١٨ ، مايو ١٩٥٩ ، السنة الثانية ، ص ١٩ •

(٧٦) Chittic, op. cit., pp. 202 — 203,
Fage, A Hist. of Africa, p. 126.

بعض الوزراء السلطة من السلطان الشرعى ، وعزلهذا واقامة ذلك تبعا لأهوائهم من جهة أخرى • كما أن ظهور مدن أخرى قوية متفوقة فى الساحل أضعف من شأن كلوة وأصابها بالتدهور ، فقد توسعت هذه المدن على حساب كلوة ، كما فعلت مدينة بات الواقعة فى شمالها ، اذ أخذت تقوى وتثرى ، وكان أن تراخت قبضة كلوة على مدنها الجنوبية وباعلان سفالة استقلالها ، فقدت كلوة أهم مصادر ازدهارها ، وهو تجارة الذهب (٧٧) • وهكذا ترتب على اضمحلال سلطنة كلوة أن فقدت وحدتها ، وسرعان ماهرع اليها العرب من مالندى ، وتولى بعضهم المناصب الهامة مثل الوزارة ، وصارت لهم الكلمة العليا فى كلوة ، فى الوقت الذى ازداد ضعف السلاطين ، وقلت ايراداتهم ، حتى أن السلطنة لم تجد ماتنفقه على اصلاح المسجد الكبير بعد ما أصابه التلف (٧٨) • ولم يلبث أن أدى تدهور كلوة الى وقوعها فريسة هينة فى شباك الغزو البرتغالى فى أواخر القرن الخامس عشر كما رأينا من قبل •

سفالة (سوفالا) :

من المعروف أن العرب لم يذهبوا على طول ساحل شرق أفريقية الى أبعد من سفالة الواقعة عند مصب نهر زمبيزى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن المناخ جنوبى ممبسة يميل الى البرودة ، وهو مناخ يختلف عن مناخ المناطق الحارة التى أتى منها العرب ، فضلا عن قلة السكان جنوبى ممبسة ، وانعدام النشاط التجارى فى تلك الأصقاع البعيدة •

وتضفى كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى الضوء على مدينة سفالة وشهرتها العظيمة فى الذهب ، فقد تناولها المسعودى قائلا : « بلاد سفالة هى أقاصى بلاد الزنج ، وأنها بأسفل بحر الزنج (أى فى أقاصى الجنوب منه) وتتاخم بلاد الواق واق (٧٩)

---

(٧٧) Chittic, op. cit., pp. 206 — 207

(٧٨) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ •

(٧٩) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ ص ١٢٥ •

ويذكر فى موضع آخر أن الزنج كانوا مستقرين فى أفريقية الشرقية حتى سفالة ، وهى آخر حدود البلاد التى كانوا ينزلونها ، وغاية مقاصد السفن القادمة من عمان وسيراف ، وينتهى بحر الزنج فى بلاد سفالة وفى بلاد الواق واق ، وهى بلاد تنتج التبر بكثرة ، ومناخها دفىء ، وتربتها خصيبة (٨٠) • ويذكر البيرونى (٨١) أن المرء لا يستطيع أن يركب البحر فيما يلى سفالة الزنج ، وما من أحد أقدم على هذه المخاطرة الحمقاء وكتبت له العودة قط ليحكى ماشاهدته عيناه • وقد أطرى البيرونى (٨٢) ذهب سفالة ، فقال عنه انه « فى غاية الحمرة » • ويذكر ياقوت الحموى (٨٣) أن سفالة « آخر مدينة تعرف بأرض الزنج ، والذهب السفالى معروف عند تجار الزنج » • ووصف الادريسى (٨٤) سفالة ، وذكر أن بها مناجم للحديد مشهورة ، كما أن التبر يوجد فيها بكثرة • ويقول ابن الوردى (٨٥) عن سفالة : « وهى تجاور أرض الزنج ، وهى أرض واسعة بها جبال فيها معادن الحديد ، ولكن معادن لضرب السيوف الهندية وغيرها • ومن عجائب أرض سفالة أ نبها التبر الكثير ظاهرا زنة كل تبرة مثقالان وثلاثة وأكثر ، وهم مع ذلك لايتحلون الا بالنحاس ويفضلونه على الذهب ، وأرض سفالة متصلة بأرض الواق واق » • وقد وصف القلقشندى (٨٦) سفالة قائلا : « وأهلها مسلمون • وأكثر معايشهم الذهب والحديد ، ولباسهم جلود الذمور » • أما الرحالة ابن بطوطة (٨٧) ، فعندما وصل الى كلوة ، ذكر له « بعض التجار أ ن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوة ، وأن بين سفالة وبونى من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن بونى يؤتى بالتبر الى سفالة » •

---

(٨٠) المصدر السابق ، حـ ١ ص ٤٢٤ •
(٨١) تحقيق ماللهند من مقولة ، ص ١٠٢ •
(٨٢) الجماهير فى معرفة الجواهر ، ص ٢٣٩ •
(٨٣) معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٢٢٤ •
(٨٤) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق •
(٨٥) خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب ، ٥٩
(٨٦) صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، حـ ٥ ص ٣٣٧ •
(٨٧) الرحلة ، حـ ١ ص ٢٠٠ •

وهنا يجدر أن نلاحظ أن سفالة لم تشتهر بالذهب فحسب ، بل اشتهرت أيضا بمعدن الحديد • وعلى الرغم من شهرة الأجزاء الجنوبية من سفالة بالذهب ، الا أن التجار كانوا لا يهتمون به هناك قدر اهتمامهم بالحديد ، كما أن التجار كانوا يأتون من مناطق بعيدة لشراء حديد هذه المنطقة ، من الهند مثلا ، حيث كان الهنود يصنعون من حديد سفالة أجود أنواع السيوف فى العالم (٨٨) •

وكيفما كان الأمر ، فقد اقترن اسم سفالة بالذهب ، واشتهرت بوفرته فى العصور الوسطى • وكان هذا المعدن يأتى الى سفالة من المناجم الداخلية ، فيروى المؤرخ البرتغالى باروس أن أقرب مناجم الذهب اليها يسمى مانيكا ، وهو يقع فى واد تحيط به الجبال على مسيرة حوالى خمسين فرسخا غربى سفالة ، وأبعد المناجم على مسيرة من مائة الى مائتى فرسخ من سفالة ، وتسمى البقاع التى بها الذهب ماتوكا ، ويطلق على الأشخاص الذين يحفرون لاستخراجه بوتونجا ، ولما كان الذهب الذى يجمع بسفالة تبرا ، قريبا من سطح الأرض على عمق ستة أو سبعة أقدام ، فان الأهالى كانوا يحفرون حفرا تملؤها مياه الأمطار فى فصل الشتاء ، جارفة اليها ذهب الأراضى المجاورة ، ومما يثير الدهشة أن أهالى سفالة كانوا لا يحرصون على استخراج الذهب ، لقلة حاجاتهم المعيشية ، ولذلك دأب التجار المسلمون على حثهم على استخراجه ، باعطائهم الأقمشة الفاخرة والجواهر (٨٩) • وكان الجانب الأكبر من تجارة الذهب يتم عن طريق المقايضة ، الى أن بدأ أهالى سفالة يستعيضون عنها بالعملات النحاسية التى كانت تضرب فى كلوة فى نهاية القرن الثالث عشر (٩٠)

وقد اختلف سكان سفالة الأفارقة الوثنيين عن غيرهم من السكان

---

(٨٨) Fage, A Hist. of Africa, p. 127
باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٦٩ •
(٨٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩ ،
(٩٠) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « سفالة » •

الوثنيين فى الساحل ، اذ كانوا يعتقدون بوجود اله واحد يسمونة موزيمو ، وينهون بشدة عن السرقة والفاحشة ، ولكى يثبتوا هذه التهمة ضد رجل يكفى أن يروه جالسا على فراش تجلس عليه امرأة ، وهو بذلك يوقع المرأة التى تكون جالسة عليه فى التهمة • وكان من حق الرجل منهم أن يتزوج بأكثر من واحدة ، طالما فى قدرته اطعامهن والقيام على شئونهن ، ولكن الزوجة الأولى تظل صاحبة المنزلة الرفيعة والامر المطاع بينهن ، وتتولى بقية الزوجات خدمتها ، وأولادهاهم الذين يرثون وحدهم أموال أبيهم ونفوذه ، وكان للمرأة تقدير خاص ، حتى أن ابن الملك كان يتنحى لها عن الطريق اذا التقى بها • أما الملابس المستعملة فى سفالة فكانت مصنوعة من القطن ، ويدخل النساء والأشراف من الرجال على نسيجها الحرير أو الخيوط الذهبية ، وكان الملك لا يرتدى الثياب المستوردة من الخارج حتى لا يكون بها سحر أو أذى (٩١)

ولايخفى علينا أن الصلات بين سفالة وشبه الجزيرة العربية ترجع الى زمن بعيد موغل فى القدم ، خاصة اذا علمنا أن الذهب من المعادن التى يشتد عليها الطلب طوال العصور التاريخية • وقد كانت سفالة هى الميناء الوحيد فى الساحل الذى يقوم بتصدير الذهب ، حيث كان التجار العرب يأتون اليها للحصول على ذهبها ، مقابل مايحملونه من سلع ، ثم يعودون الى أوطانهم فى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى • وبظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، أصبح لدى العرب دوافع أخرى ـ سياسية ودينية ـ جعلتهم يستقرون فى مناطق الساحل ، ومن بينها سفالة ، وبالتالى صارت تجارة الذهب فى أيديهم • وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ البرتغالى باروس أن هجرة الاخوة السبعة من الأحساء الى الساحل ، قد استقرت أول الأمر فى مقديشيو وبراوة ، ثم لم تلبث أن فتحت تجارة الذهب مع سفالة (٩٢) • غير أن الأمر لم يستمر على هذا النحو ، اذ يروى باروس أن رجالا من كلوة انتزعوا تجارة سفالة من مقديشيو وسيطروا عليها (٩٣) • ومنذ ذلك الوقت ازدهرت

---

(٩١) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥ •

(٩٢) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 102; Chittick, op. cit., pp. 200 — 201.

(٩٣) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، Chittick, op. cit., p. 206.

تجارة الذهب بين الساحل الشرقى لأفريقية وآسيا ، ونمت ثروة المدن الساحلية عما كانت عليه من قبل ، وبلغت مستوى راقيا من الحضارة ، ويشهد بذلك مادونة الرحالة ، ولاسيما ابن بطوطة ٠

وهنا يصح أن نكرر أن « ذهب سفالة الذى لا ينضب » كان أحد العوامل الرئيسية التى دفعت البرتغال للقيام باستكشافاتها الجغرافية فى أواخر القرن الخامس عشر ، وقد رأينا من قبل أن سفالة كانت ثانى مدينة عربية فى الساحل ، وقعت عليها أنظار فاسكودى دى جاما ، وقد أصيب هو وبحارته بالدهشة لما وجدوه بها من حضارة راقية لم تخطر على بالهم ٠ ونستطيع أن نقرر أنه بعد أن أنتهت الحملات البرتغالية الأولى من كشف الطريق البحرى الى الهند ، قد رفعت بعد عودتها تقارير وافية الى عما نويل الأول ملك البرتغال عن أحوال الساحل الشرقى لأفريقية ، وعلى وجه الخصوص مناجم الذهب الوفيرة فى سفالة ، وشهرتها فى هذا الصدد ، الأمر الذى استحوز على اهتمام عما نويل ، وجعله يصمم على احتكار تجارته ٠ وتنفيذا لهذا الغرض أمر عما نويل ببناء سلسلة من الحصون فى النقاط الرئيسية على الساحل ، حيث اختيرت سفالة فى مقدمتها ٠ وكان أن غادر بدرو دانهايا لشبونة فى ١٨ مايو سنة ١٥٠٦ ، قاصدا سفالة ، ولما وصل اليها استقبله حاكمها يوسف وسط ثلة من حراسه المسلمين ، وكان شيخا طاعنا فى السن يناهز السبعين ، كفيف البصر ٠ وقد اضطر يوسف الى الترحيب بدانهايا بعد أن وصله خبر استيلاء داليدا على كلوة ، كما سمح له باقامة حصن فى بلاده ، ساعد أهالى سفالة فى بنائه ، على أنه لم تكد تمر بضعة شهور على بقاء الحامية البرتغالية ، حتى ضاق الاهالى ذرعا بها ، وأغاروا صدر شيخ سفالة ، وحثوه على التحرك لمقاومة البرتغاليين فى أرضه ، غير أن البرتغاليين مالبثوا أن أكتشفوا مايدبره شيخ سفالة بسعاية حبشى يدعى أكوت، وفى القتال الذى دار بين الفريقين ، هزم أهالى سفالة ، وسقط شيخها قتيلا ، وكوفىء أكوت بجعله حاكما على سفالة (٩٤) ٠

وعلى أية حال ، ظلت سفالة طوال القرن السادس عشر الثغر الوحيد

---

(٩٤) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 134.

فى منطقة الساحل الذى يصدر الذهب الى البرتغال ، وان كانت الكميات التى حصل عليها البرتغاليون لاتتناسب مع ماكانوا يأملونه ، فالأرباح الناجمة عنه كادت تغطى نفقات استخراجه ، الأمر الذى جعل التجـــار يتجهون صوب الشمال الى كولمانة (كويلمين) Quelimane شمالى نهر زمبيزى ، حيث يزيد بها الذهب وفرة ، وقد أثر ذلك على مدينة سفالة، فأخذ نجمها فى الافول ، وفقدت سوقها الشهيرة فى العصور الوسطى (٩٥) ٠

ه-وزمبيق :

كانت الفكرة السائدة عند البرتغاليين قبل وصولهم الى ساحل شرق أفريقية أن الأقوام التى تعيش هناك هى أقوام بدائية ، أقرب شبها الى الأقوام التى صادفوها فى الساحل الغربى من القارة الأفريقية ٠ ولكن تلك الفكرة انقلبت رأسا على عقب على أثر وصول فاسكودى جاما الى ســاحل موزمبيق فى أول مارس ١٤٩٨ م ، اذ أصابته الدهشة عندما رأى بيوت الأهالى مبنية بالخشب ، على حين كانت المساجد ودار صاحب موزمبيق مشيدة بالحجر ٠ وازدادت دهشة فاسكو عندما وقع بصره على زاكويجة Zacoeja شيخ موزمبيق – وكان تابعا وقتئذ لسلطان كلوة – اذ وجده متشحا بالثياب الحريرية ، ومتقلدا السيف والخنجر ، وفى معيته جماعة من العرب فى أفخر اثياب ، تتقدمهم الآلات الموسيقية ، ولهذا أدرك فاسكو السبب الذى جعل حاكم موزمبيق يقابل هداياه المتواضعة بازدراء ٠ وهنا نكرر القول أن أهالى موزمبيق قابلوا فاسكو وبحارته أول الأمر فى حفاوة وترحيب ، ظنا أنهم مسلمون أتوا من بلاد المغرب ، ولكن الأهالى سرعان ماأكتشفوا أن الوافدين عليهم مسيحيون ، ومن ثم اتخذوا منهم موقفـا عدائيا ، وبادروا بحمل السلاح ، ولكن فاسكو أطلق عليهم نيران مدافعه ، وقتل بعضهم ، ثم أقلع بسفنه شمالا بعد أن حصل على حاجته من المؤن والمـاء العذب (٩٦) ٠

---

(٩٥) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I , p. 135
Brimingham & Marks, Southern Africa, p. 586;
دائرة المعارف الاسلامية ، مادة سفالة ٠

(٩٦) جيان : المرجع السابق ، ص ٣١٨ – ٣١٩ ،
Pearce, op. cit., pp. 56 — 57

ويذكر مؤرخ أحداث حملة فاسكو أن أهالى موزمبيق كانوا مسلمين يتحدثون العربية ، وملابسهم من الكتان والقطن ، ومحلاة بشرائط مختلفة الألوان ، تدل على مهارة الصانع ، وكانوا يشتغلون فى التجارة ، ويتعاملون مع التجار العرب • وعندما رسا الأسطول البرتغالى فى موزمبيق ، كان ثمة أربع سفن لتجار عرب راسية فى الميناء ، محملة بالذهب والفضة والتوابل ، فضلا عن كمية من اللآلىء والجواهر والياقوت ، وكانت تلك السلع باستثناء الذهب قد أتى بها التجار العرب لأهالى موزمبيق (٩٧) •

ولعل الجدير بالذكر أن موزمبيق لعبت دورا هاما ابان السيطرة البرتغالية على الساحل • ذلك أن البرتغاليين ارتكزوا فى الساحل على القسم الجنوبى منه ، واكتفوا فى الشمال على حلفائهم حكام مالندى ، الذين كانوا يمدونهم بالعون العسكرى ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن المناخ فى الجنوب أكثر اعتدالا لبعده عن خط الاستواء ، علاوة على أنه أقرب الى مناجم الذهب الداخلية التى تصب فى موزمبيق (٩٨) • ومما زاد فى أهمية موزمبيق توسط موقعها ، وصلاحية مينائها لرسو السفن وتحكمها الاستراتيجى فى مضيق موزمبيق ، ولهذا كله اعتمد رخاؤها على الرسوم الجمركية التى كانت تحصل عليها من السفن العديدة المارة بها أثناء ذهابها الى الهند وعودتها منها (٩٩) •

جزائر القمر (الكومور) :

تقع جزر القمر الى الشمال الغربى من جزيرة مدغشقر ، وهى تتكون من أربعة جزر : نجزيجة أو القمر الكبرى وأنجوان ومايوت وموهيلى (موحلى) ، وهى جميعا جزر بركانية صخرية وبها قليل من الماء ، ولهذا يهاجر الكثير من أهلها الى زنجبار والساحل (١٠٠) • ويقال أن أول من وفد على هذه الجزر جماعة ينتمون الى الجنس الماليزى ، ثم أتى العرب اليها ، واختلطوا بأجناس الجزيرة الماليزيين ، فتكون فيما يعرف بالجنس القمورى الحالى •

---

(٩٧) Pearce, op. cit., p. 56

(٩٨) صلاح العقاد ، جمال زكريا : زنجبار ، ص ٢٢ •

(٩٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٦١ •

(١٠٠) Trimingham, Islam in East Africa, p. 37; والترجمة العربية ، ص ٨٢ •

ومن المسلم به أن العرب عرفوا جزر القمر واختلطوا بسكانها الأصليين منذ القرن التاسع الميلادى على الأقل ، بيد أنه لاتتوفر لدينا المعلومات التاريخية البحتة التى نقف من خلالها على تاريخ أول هجرة عربية وفدت على تلك الجزر ، ونتيجة لذلك نشأ خلاف بين الباحثين مايزال قائما حتى اليوم • وبداية يذكر المسعودى أن أزد عمان الاباضيين نزلوا فى جزيرة قنبلو (أنجوان)فى سنة٢٠٨هـ (٨٢٤ م) (١٠١) • أما صاحب كتاب السلوة فى أخبار كلوة فيروى أن الهجرة الشيرازية التى وصلت الساحل الشرقى لأفريقية فى سبع سفن فى القرن العاشر الميلادى قد توزعت فى عدة أماكن ، كان من بينها جزيرة هنز وان (أنجوان) ، وفى هذا يقول : « وذكروا أن جميع أهل المراكب الستة اخوة ، وصاحب المركب السابع الذى دخل هنزوان هو أبوهم » (١٠٢) • ولكن كارتى Carthy يذهب الى أن تاريخ وصول العرب الى جزر القمر غير معلوم ، وانما ثبت أن رجلا عربيا امتاز بالشجاعة جعل نفسه سلطانا على جزيرة القمر الكبرى ، كما أضاف أن أعقاب هذا الرجل هم الذين اشتبكوا فى حرب مع البرتغاليين عندما وصلوا الى مياه الساحل فى أوائل القرن السادس عشر ، الى أن جاء محمد بن عيسى من شيراز مع جماعته ، فنزل بالساحل أول الأمر ، ثم استولى على جزيرة القمر الكبرى ، وعلى جزيرتى أنجوان وموهيلى ، ولما زار جزيرة مايوت رحب به الأهالى ، وتزوج من ابنة زعيمهم (١٠٣) • أما جيفرى Gevrey فقد ذكر أن السفن العربية كانت تتردد على جزائر القمر ، ولكن العرب لم يستقروا فيها الا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وعندما وصل البرتغاليون لم يجدوا صعوبة فى احتلالها ، لضعف سكانها وقلة عددهم ، وكثرة السلطنات القائمة بها ، وبعد انصرافهم عنها ، جاء محمد بن عيسى مع جماعته فى عام ١٥٠٦ الى جزيرة القمر الكبرى ، ونشر الاسلام بها ، وأرسل ابنه حسن الى جزيرة أنجوان فاستولى عليها (١٠٤) •

---

(١٠١) مروج الذهب ومعادن الجواهر ، جـ١ ص ١٢٢ ــ ١٢٣ •

(١٠٢) سعيد بن على المغيرى : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٣٧ ــ ٣٨ •

(١٠٣) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، جـ٣ ص ١٤٢ ــ ١٤٣ •

(١٠٤) لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٤٣ •

أمـــا دوبلانتييـــه Du Plantier ، فيرى أن العرب نزلوا في هذه الجزيرة قادمين من مسقط وغيرها في القرن العاشر الميلادى ، وكان يصحبهم زنوج عدة ، ووجدوا فيها زنوجا وثنيين لايعرف تاريخ مجيئهم ، وقد نشأ عن هذه الأجناس جنس مختلط من السامى الخلص الى الأسود البانتو والأجاشى (المدغشقرى) ، يعرف بالجنس القومورى (١٠٥) ٠

أما جزيرة أنجوان ، فأهلها مسلمون سنيون ، شديدو التمسك بدينهم ، ويتكلمون اللغة السواحيلية ٠ ويذكر البعض أن حسن بن محمد بن عيسى الشيرازى وصل الى الجزيرة ، فتلقاه الأهالى بالترحاب ، وأسس سلطنة فيها ، اذ تزوج من ابنة زعيم الجزيرة فى موتسامودو ، المسمى « فانى على » ، وكان له الفضل فى نشر الاسلام فى أنجوان ، وبناء المساجد فى قراها ٠ وبعد موته خلفه ابنه محمد،الذى تزوج أيضا بأمينة ابنة ماسيلاجا زعيم جزيرة مايوت وألحقها بسلطنته ، ثم أضاف اليه جزيرة موهيلى ، ودان له بالطاعة سلاطين جزيرة القمر الكبرى ، وخلف محمد ابنه عيسى ، ولكن ضعف شأنه وقل نفوذه ، اذ خرجت عليه جزيرة القمر الكبرى وأصبح نفوذه عليها اسميا ، وبعد وفاته شبت المنازعات والقلاقل فى جزيرة القمر،وظل الوضع على هذا النحو الى أن أغار حكام مدغشقر عليها واجتاحوها ، وحرقوا قراها ، وفتكوا بأهلها (١٠٦) ٠

مدغشقر (ملاجاشى) :

تقع جزيرة مدغشقر فى غربى المحيط الهندى ، ولا يفصلها عن ساحل افريقية سوى مضيق أو قناة موزمبيق ، حيث لاتزيد المسافة بين رأس سانت أندريه وبين ساحل القارة عن أربعمائة كيلو متر ، وتمتد هذه الجزيرة على شكل مستطيل ويبلغ أقصى طول لها حوالى ١٦٠٠ كيلو متر ، وأعظم اتساع لها من الشرق الى الغرب ٦٠٠ كيلو متر ، ومساحتها ٥٩٢٠٠٠ كيلو متر مربع (١٠٧) ٠ وسكانها خليط من الأفارقة والمهاجرين الأسيويين والعرب القدماء ، وأهم القبائل الكبيرة فى مدغشقر هى التانالا ، والأنتانكارانا ، والانتسيهاناكا ، والساكالافا ،

---

(١٠٥) نفس المرجع والمكان ٠

(١٠٦) لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فى أفريقيا ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠

(١٠٧) أحمد نجم الدين : أفريقيا جنوبى الصحراء ، ص ٢١٩ ٠

والبتسميزاركا ، والهوفا ، والأنتيموروونا ، ومن الملاحظ أنه منذ عصر ما قبل الاسلام وفدت عدة جماعات عربية على مدغشقر ، واستقرت فيها ، وفرضت نفوذها على الأهالى ، ولم يمض طويل وقت حتى امتزجت بهم ، وبعد ظهور الاسلام أدخل العرب دينهم وثقافتهم وتقاليدهم الى الجزيرة ، وأن كان تأثير النفوذ العربى لايظهر الا فى قبيلة الأنتيموروونا التى تسكن الساحل الجنوبى الشرقى من مدغشقر (١٠٨) • وليس من المعلوم لدينا التاريخ الذى اعتنقت فيه هذه القبيلة الدين الاسلامى ، فى الوقت الذى يتميز أفرادها بترديد شعار الوحدانية دائما على عادة العرب ، مثل الحمد لله وحده ، ولايبدأون بعمل الا بعد ذكر «بسم الله الرحمن الرحيم ،لا اله الا الله ، محمد رسول الله»، كما يبدأون بهـا كتاباتهم ، وهم يحافظون عـلى أداء الصلوات ، ويمتنعون عن أكـل الحيوانات النجسة ، ويختنون أطفالهم (١٠٩) • ويزعم أفراد قبيلة الأنتيموروونا أنهم يرجعون فى أصولهم الى هجرات عربية أتت من مكة المكرمة ، كما تذكر الأساطير الشائعة بالجزيرة أن اسلام هذه القبيلة يعود الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (١١٠) •

وقد جاء الاسلام الى جزيرة مدغشقر من عدة مداخل ، أولها المدخل الغربى الجنوبى المقابل لسفالة ، والمعتقد أن المسلمين الذين دخلوا منه كانوا من الأفارقة ومن العرب الذين اختلطوا بهم ، والمدخل الثانى هو المدخل الشمالى الشرقى ، وهو مدخل بحرى كان يدخل منه التجار المسلمون من العمانيين والقادمين من سواحل الخليج العربى ، وكانوا يأتون الى هذا الساحل بغرض الاتجار ، ولكنهم لم يتوغلوا فى داخل الجزيرة بسبب وجود القبائل البدائية والأوبئـة ووعورة الأرض ، ولأنهم كانوا يبيعون ويشترون فى المراكز الساحلية ، الا أنهم حسب العادة لابد من أن يبحثوا لهم عن مراكز اقامة دائمة فى تلك المنطقة ، ومما يدل على ذلك مدينة « سالالا » التى أسسها العمانيون من أهل صلالة فى شمالى

---

(١٠٨) Ferrand, Les Musulmans A Madagascar et aux ils Comores, première partie, Les Antaimorana, pp. VIII — IX;

لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٢٢ •

(١٠٩) لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٢٥ •

(١١٠) Ferrand, op. cit., première partie, p. 9

الجزيرة (١١١) ، ولايزال هناك دليل آخر • وهو مدينة « ديقو » فى الطرف الشرقى من شمال الجزيرة ، وهى مدينة عربية يمنية معروفة بذلك ، وكانت اللغة العربية حية متداولة فيها الى ماقبل خمسين سنة ، حيث قل تواجد العرب اليمنيين عليها ، ولكن أهلها من العرب بقى لهم لونهم المميز ولغتهم الموجودة فى الكتاتيب ، وأنسابهم المعروفة لأبنائهم • أما المدخل الثالث للاسلام الى الجزيرة فهو من ناحية الشمال الغربى ، حيث مدينة ماجنقا ، التى كانت تعتبر المدينة الاسلامية الأولى فى كل أنحاء الجزيرة ، اذ أن أهلها المسلمين أغلبهم جاءوا اليها من جزر القمر باعتبارها أقرب نقطة من مدغشقر الى تلك الجزر وبخالطهم بها قوم جاءوا من زنجبار • أما المدخل الخامس والاخير الذى دخل منه الاسلام فهو الساحل الشرقى الجزيرة . وهو المدخل الذى وصل منه الاندونيسيون والماليزيون ممن يقطنون جنوب شرقى آسيا (١١٢) •

وثمة اشارة الى مدغشقر فيما دونه الرحالة الايطالى ماركو بولو (ت ١٣٢٤ م) فى أواخر القرن الثالث عشر ، فقد ذكر أن سكان الجزيرة مسلمون ، ولهم أربعة أشياخ يقتسمون الحكم فيما بينهم ، ويعيش السكان على التجارة ، ويبيعون عددا لاحصر له من أنياب الفيلة ، وهناك أيضا كثير من العنبر الذى تخرج من الحيتان ، فاذا قذفه المد على الساحل جمع ليباع . وتقبل الى الجزيرة كثير من السفن ، تقصدها من أرجاء مختلفة من العالم ، جالبة معها سلعا مختلفة ، من بينها الديباج القصب والحرير ذات الرسومات المختلفة ، وكلها تدر أرباحا طائلة ، ويذكر ماركو بولو أيضا أن الرحلة بين الهند وساحل شرق أفريقية كانت تستغرق فى هذا الوقت حوالى العشرين يوما (١١٣) •

ويلاحظ أن دعوى الانتساب الى آل البيت منتشرة بين مسلمى مدغشقر فى سواحلها الجنوبية الشرقية والشمالية ، فثمة سبع قبائل تشبه عقائدها عقائد الآنتيموروانا ، ويروى بعضهم أنهم يتحدرون من ذرية راميزيا Zafi - Raminia

---

(١١١) محمد بن ناصر العبودى : مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين،ص ٢٢

(١١٢) محمد بن ناصر العبودى : المرجع السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٤ •

(١١٣) رحلات ماركو بولو ، ترجمها الى الانجليزية وليم مارسدن،وترجمها الى العربية عبد العزيز توفيق جاويد ، ص ٣٢٩ •

الذى قدم من مكة ، ويبدو أن رامينيا محرف من رحمن أو عبد الرحمن ، ويزعمون أن هذا الرجل كان صهرا للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه هاجر مع أمرائه وأتباعه الى مدغشقر ، اثر المظالم التى وقعت على آل البيت (١١٤) • ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى فران من الأبحاث التى أجراها بنفسه ، ومن الكتب العربيه المدغشقرية التى اطلع عليها ، الى أن الاسلام وفد على السواحل الشمالية والجنوبية الشرقية من مدغشقر عن طريق العرب ، كما أن العرب الذين استوطنوا الساحل الشرقى لأفريقية منذ القرن السابع الميلادى ، عرفوا مدغشقر ونشروا الاسلام بها منذ القرن الثامن (١١٥) •

أما عن أحداث جزيرة مدغشقر فى بداية الوجود البرتغالى فى ساحل شرق أفريقية ، فقد ذكر المؤرخ البرتغالى جان دوس سانتوس أن البرتغاليين اكتشفوا الجزيرة فى عام ١٥٠٦ عندما وصل اليها القائد البحرى تريستام داكنها فى طريقه الى الهند • وكان أهالى الجزيرة المسلمون قد رفضو السماح للبرتغاليين بالتجارة فى الجزيرة خلال حكم دى منيسيس لموزمبيق ، فجهز الأخير سفينة حربية لقتال الأهالى اذا أصروا على رفضهم السماح للبرتغاليين بالتجارة فى الجزيرة ، فلما وصلت السفينة الى مدغشقر انصاع المسلمون تحت التهديد باستخدام القوة ، فرجعت السفينة الى موزمبيق بعد أن تركت على الساحل أحد الرهبان ، وحدث ان جاءت سفينة اسلامية الى ساحل مدغشقر ، فانتقم رجالها من البرتغاليين بوضع السم للراهب فمات ، مما جعل البرتغاليين يخربون مدغشقر فى العام التالى (١٥٠٧) ، ثم عادوا الى موزمبيق (١١٦) •

ومما يذكر أن البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر كانوا يعرفون جزيرة القمر ، وهو الاسم الذى أطلقه المسلمون عليها ، بيد أنه عندما وصل اليها دييجو لوبيز دى سيكيرا فى أغسطس سنة ١٥٠٨ ، أطلق عليها اسم سان لورنت Saint Laurent ، وقد ذكرها الرحالة أندرية كورسال الذى كان فى قناة موزمبيق حوالى سنة ١٥١٤ بهذا الاسم ، فوصفها قائلا :

---

(١١٤) لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٣٢ – ١٣٣ •
(١١٥) لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٤١ •
(١١٦) Ferrand, op. cit., première partie, pp. 52 — 54

« عندما وصلنا موزمبيق وجدنا سفينتين برتغاليتين صغيرتين قادمتين من جزيرة سان لورنت الواقعة فى عرض البحر مقابلة موزمبيق ، وهى احدى الجزر الكبيرة التى اكتشفت فى أيامنا • ويقال أن تلك الجزيرة كثيرة المواشى ، بها كميات وافرة من الأرز ، وحاصلات أخرى يعيش عليها أهالى الجزيرة ، وبها كميات والعنبر الرمادى والزنجبيل والقرنفل•••ويوجد بها الكثير من العسل وقصب السكر والزعفران والليمون والبرتقال،وماؤها عذب،ومواتيها جيدة ، وسكانها أفظاظ ، يتكلمون لغة خاصة بهم غير لغة أهالى موزمبيق،وبشرتهم ليست شديدة السواد ، ولكنهم فى جعودة شعرهم كسائر أهل تلك المنطقة ، والمسلمون وحدهم بأيديهم موانى الجزيرة ، يقايضون محاصيل البـلاد بما يأتون به من القطن والسلع الهندية • وهناك جزيرة صغيرة أخرى ، بالقرب من هذه الجزيرة تدعى أوكتاباكام ، وهى غنية بالفضة » (١١٧) •

وفى حوالى سنة ١٥١٦ م أمدنا المؤرخ البرتغالى باربوسا ببعض المعلومات عن جزيرة مدغشقر ، بقوله : « توجد جزيرة اسمها سانت لورنت على بعد ٦٠ فرسخا من رأس كورينت ، يقطنها الوثنيون ، وفيها بعض القرى التى يسكنها المسلمون • وفيها ملوك مسلمون ووثنيون ، ورجال هذه الجزيرة لونهم زيتونى ، ويتكلمون لغة خاصة ، وأرضها خصبة رائعة الجمال » • أما الرحالتان جان وراؤول بارمنتييه ، فقد أشارا فى رحلتهما الى مدغشقر سنة ١٥٢٩ الى وجود « مسلمين بيض » بها ، يتميزون عن أهالى البلاد الزنوج (١١٨) •

واخيرا نصل الى القول أن كل مدينة من مدن الساحل الشرقى لأفريقية كانت مستقلة عن الأخرى ، ولم تكن هناك وحدة سياسية شاملة تضم صفوفها ، بل كانت زعامات وقتية تفرضها احدى المدن على الأخرى • ولذلك عندما داهم البرتغاليون بمدافعهم الحديثة تلك المدن فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، استغلوا المنافسات والحروب القائمة بينهما ، فوضعوا يدهم عليها الواحدة بعد الأخرى ، فى الوقت الذى لم تشهد مدن الساحل ظهور شخصية على أرضها توحد صفوفها ، واستمر الأمر على هذا النحو ، الى أن جاءت حركة المقاومة من الخارج ، من عرب عمان فى أواخر القرن السابع عشر ، الذين كان لهم الفضل الكبير فى القضاء على البرتغاليين قضاء مبرما •

---

(١١٧) Ibid., pp. 52 — 54

Ibid., pp. 51 — 52